اللغة والتعبير

لمؤلفه جورج مونان (*)

تعريب : محمد سيلا

يبدو رغم كل المظاهر، أنه ليس من السهل معالجة مشاكل اللغة كفيلسوف، أو التحدث عن اللغة إلى الفلاسفة كلساني. لقد استطاع الفلاسفة فعلا أن يتحدثوا، لعدة قرون، عن اللغة انطلاقا من حدسهم، ومن تجربتهم الاختبارية للكلام، وعما يقوله النحاة التقليديون، أو حتى عن فرضياتهم الميتافيزيقية. ما تزال هناك، بدون شك، في تاريخ اللسانيات وتاريخ الفلسفة أشياء كثيرة يتعين التقاطها بصدد هذه الأمور، وخاصة من زاوية المعارف اللسانية الأكثر يقينا الآن. ومع ذلك، فإن المشكل المركزي، ليس هو، الآن على الأقل، تاريخ الأفكار التي كونها الناس عن اللغة، بل المهم هو المعرفة الدقيقة بقدر الامكان، هنا و الآن، للغة ذاتها، ولطبيعتها ولوظيفتها أو وظائفها، لطريقة عملها (في منظور التآني) ولتطورها (في منظور زمني).

من المؤكد أن ظهور اللسانيات كعلم مستقل، منذ 1816 (مع Bopp) وخاصة ابتداء من 1916 (مع دوسوسير Desaussure) قد غير العلاقات ـــ الضرورية ـــ بين الفلسفة وعلوم اللغة تغييرا عميقا. لقد حدث هذا التغير ببطء شديد، ولا يمكن أن نعتبر أنه اكتمل وانتهى. ومن وجهة نظر اللسانيين على الأقل، فإنه أصبح من المستحيل اليوم التفلسف حول اللغة بدون أن يكون المرء موقنا من أنه قد تملك المعارف اللسانية الأقل عرضة للشك. وتلك هي، على وجه اليقين، أولى موضوعات التفكير حول اللغة، والتي يتعين اقتراحها على الفلاسفة.

لكن الصعوبة لم تكن بدون شك في يوم من الأيام أعسر مما هي عليه اليوم. وفعلا ففي الفترة 1925 ـــ 1960، وقبل أن تعيد الفلسفة اكتشاف ضرورة تجديد المشاكل التي تطرحها اللغة، فقد وجدت فترة شبه وحيدة في اللسانيات

(*) جورج مونان : لساني فرنسي معاصر. وهو مؤلف عدد من الكتب من بينها : « مفاتيح للسانيات » (1968) و « مدخل إلى السيميولوجيا » (1870) و « التواصل الشعري » (1969) و « المشاكل النظرية للترجمة » (غالمار 1963) و « تاريخ اللسانيات منذ الأصول إلى القرن العشرين » (1974).

عن Philosopher : Les interrogations contemporaines Fayard (1980)

النظرية : فالمبادىء والمناهج، وكذا حلول المشاكل، كلها كانت تلتقي على وجه العموم، سواء تعلق الأمر بإدوارد سابير (E. Sapir)، (1922) أو بسرغي تروبتسكوي (S. Troubetskoï) (1933 ، 1939) أو ليونار بلومفيلد (L. Bloomfield) (1933) أو لو همسليف (L. Hjelmslev) (1943)، وكذا مارتن جوس (M. Joos) (1948) وهنري كلاسون H.) (Cleason ، وكينث بيك (K. Pike) (1955)، وشارل هوكيت (C. Hockett) (1958) أو أندري مارتينيه (A. Martinet) (1960). وحوالي هذا التاريخ الأخير حدث انفجار نظري لأسباب متعددة، وهو انفجار جعل الفيلسوف أو متعلم الفلسفة غير قادر، يوما عن يوم، على ممارسة الاتصال مع اللسانيات. فعدد الباحثين ــ وعدد المنشورات ــ قد تضاعف مئة مرة خلال ربع قرن؛ وعدد مراكز البحث، أي شعب اللسانيات، هو بدون شك أكبر من عدد الجامعات نفسها. ومن ناحية أخرى فإن قصر الدائرة وضيق الميدان المتعلق بتكوين أغلب الباحثين الشباب يقوى هو أيضا (ولنذكر الشعار « أن ينشر المرء شيئا وهو في الخامسة والعشرين أو أن يموت علميا في سن الخامسة والثلاثين »)، هذا التزايد الحاد الذي ينعكس في تواتر النظريات المختلفة، والمتنافسة بقوة : اللسانيات البنيوية (وسنعود إلى الحديث عنها)، والتوزيعية، والتحويلية والتوليدية، والتراتبية، والعلائقية، والتعقيدية، والاحصائية والرياضية (وأكتفي بهذا القدر). ويجب أن نضيف إلى هذه اللوحة القاتمة استفحالا في ظاهرة التواصل العلمي : وقد أحصى باحث لغوي بلجيكي (هو Guy Jucquois) مثلا أن المراجع الأجنبية في مجلة أمريكية حول اللسانيات هي 6% للألمانية و 5% للفرنسية و 3% للغات الأخرى. (وبالنسبة لمجلة فرنسية مناظرة الأرقام هي 29% للألمانية و 12% للانجليزية و 1% للغات الأخرى). ويبدو أن الميل إلى قراءة ما لدى الآخر يتناقص بالتدريج، والعديد من النظريات منغلق في جزر علمية حقيقية. كيف يستطيع غير اللغوي التوجه في هذه الغابة، وكيف يستعلم قبل أن يختار ؟ هذا موضوع ثان للتأمل ــ ربما الفلسفي ــ وهو قبل كل شيء مطروح على اللسانيين وبدون شك أيضا على الفلاسفة.

لكن بالنسبة للساني المهتم بهدف المؤلف الذي ستظهر فيه هذه السطور، المشكل المباشر هو التالي : ماذا يمكن أن يقول المرء لقرائه عن اللغة، مما لم يتم تجاوزه ربما، ومما يمكن أن يبقى مفيدا وصالحا لمدة خمس أو عشر سنوات وربما عشرين ؟.

يود اللساني (عالم اللغة) من أجل ألا يسبح ضد التيار، وخاصة إذا كان لسانيا من جيلي (وربما من مزاجي) يود أن يبدأ بطرح سؤال : لماذا يتعين اليوم ألا نجمّع، بصدد اللغة واللسانيات، سوى الشكوك والتساؤلات والمشاكل والاشكاليات ؟. ألم يحن بعد الوقت الذي نتساءل فيه عما إذا كان باشلار (Bachelard) يسيء اليوم (بمفهومه عن **القطيعة الابستمولوجية** المطبق ميكانيكيا على كل الحركات الصغيرة للموضة الثقافية) بقدر ما أحسن عندما أدخل منذ أكثر من ربع قرن دينامية في تاريخ العلوم ؟. والتساؤل أيضا عما إذا لم يكن كيون (Kuhn)، بكتابه « بنية الثورة العلمية » وبإلحاحه على عدم الاتصال في تطور البحث النظري، يخاطر بنفس الموقف : وهو الحطّ بشكل غير جدلي، من قيمة الجانب التراكمي للمعرفة، وهو جانب ماثل في كل فرع معرفي ؟ لا يمكن أن تكون هناك اليوم درجة صفر في النظرية، ولا بالنسبة لأي باحث، ولا لأية فترة، مهما ظنت أنها فترة ثورية وارتأت ذلك في ميدانها. يجب على المرء أن يكون دوما حذرا تجاه الشروط والظروف المؤطرة لعصره أو للفترة التي ينتمي

إليها : إننا نبصر العيوب الوضعية والعلموية للفترة 1870 ــ 1920، لكن من باستطاعته رؤية العيوب الايديولوجية التي تعمى أبصارنا اليوم ربما ؟.

إن الصورة العامة لما يظل اليوم صلبا وقائما في اللسانيات ليس مدانا في حد ذاته، إذا ما اعتبرناه نقطة انطلاق كانت ضرورية لكل تفكير في الواقع الحالي للسوق اللسانية، وليس كنقطة وصول لمسار وثوقي. وتلك هي الموضوعة الثالثة المطروحة للتأمل في ميدان فلسفة اللغة ــ وخاصة إذا ما لم نزح بصرنا عن واقع أن الباحثين في العلوم الانسانية، بحكم تكوينهم الثقافي، هم شبه متشيعين كليا بموقف أدبي تجاه المعرفة، موقف يدفعهم إلى إدراك ما يميزهم ويفرد تخصصهم، وإلى تهامل ما يدينون به لمن سبقوهم. أي أنهم مدفوعون، بفعل بنية الفكر ذاته الذي يشكل ويغذي دراساتهم، وبفعل الأيديولوجيا الخاصة بالأدب، إلى التقليل من شأن الطابع غير التاريخي « لمكتشفاتهم »، وإلى احتقار الطابع التراكمي، بل التكراري لهذه « المكتشفات » (التي حدثت من قبل أكثر من مرة في تاريخ فرعهم المعرفي تحت تسميات أخرى).

حقا إن المشاكل والتساؤلات والشكوك متوافرة في اللسانيات، بل إنه غالبا ما يحدث أن الخاطىء منها، الذي نكرره ونجتره، يجعل الحقيقي منها يختفي، إما بمرورنا فوقه أو بتجاهلنا له. لكن من أجل تناول المشاكل ومن أجل طرحها، وتحليلها، ومن أجل حل هذه المشاكل يجب توافر أدوات مفهومية تم فحصها واختبارها منذ البداية. وهناك بالفعل أدوات من هذا النوع.

هناك أولا مفهوم التواصل كوظيفة أولى وأساسية للغة، وهو مفهوم مكتسب وصامد. إن من العسير الانفصال عن التعريف العائد إلى حوالي 2000 سنة والذي يقول بأن اللغة في المقام الأول هي التعبير عن الفكر ــ الذي هو شيء مقابل للغة وسابق عليها ــ بحيث أن هذه الفكرة الأساسية القاعدية ما تزال محط معارضات. فهناك من يستنفذ وقته في البرهنة على أن اللغة لا تصلح ولا تستخدم دوما في تحقيق التواصل، وهو أمر واضح وبديهي؛ والفيلسوف فتجنشتين، هو أحسن من قال ذلك في إحصائه للاستعمالات المتنوعة جدا للغة، ويدعوها « لعب اللغة ». لكن هذه اللعب ثانوية. إن ما يفسر أداء اللغة لوظيفتها واقتصادها الداخلي وتواترها هو شروط وظروف التواصل لا التعبير عن الفكر. تؤكد لنا دراسة التواصل الحيواني، هذا التواصل المرتبط بالأنواع التي تعيش ضمن الجماعة، وتواصل التأكيد بأن أصل التواصل ــ وكذا خصائصه النوعية ــ اجتماعي. إن مجموعات من الحيوانات التي تستخدم بعض الرموز (الببغاوات ــ الفئران، الغربان، السناجيب.....) لا تتواصل فيما بينها إلا بشكل سيء أو لا تحقق التواصل بتاتا. أما الحيوانات الأخرى، التي يكون مع ذلك من العسير إبراز عمليات ترميز لديها (القرود. من فصيلة الليموريات وبعض الطيور الكاسرة التي تمارس الصيد جماعيا.. إلخ) فتتواصل أحسن.

هناك مفهوم آخر يمكن أن يصلح لتحديد وتعريف اللغات المتحدثة من طرف الانسان مقابل كل الأشكال الأخرى للتواصل الانساني أو الحيواني، وقد استغرق هذا المفهوم وقتا طويلا لكي يفرض نفسه، لأن البعض رأوا فيه تكرارا وتحصيل حاصل، في حين رأى فيه آخرون سمة غير مميزة. يتعلق الأمر بالتمفصل المزدوج (la.double articulation). ونعني به أن اللغات المنطوقة هي على الأرجح « القواعد » الوحيدة المنتظمة مرتين : في وحدات دالة (وحدات كلامية أو وحدات هيكلية حسب النظريات)، وتنتظم هذه الأخيرة (أي الوحدات الهيكلية

morphèmes) في وحدات غير دالة، وحدات مميزة (صوتيات phonèmes). وقد كان لهذا المصطلح فضل طرح مشكل السمات المميزة للغة الانسانية طرحا واضحا، هذا المشكل الذي ظل إلى حد الآن موضع لبس بسبب اننا نعتبر كل منظومات التواصل لغات ونسميها كذلك. والنقاشات الحالية الجارية حول ما إذا كانت اللغات الحركية لدى الهنود أو لدى الصم ــ البكم متمفصلة تمفصلا مزدوجا أم لا تدل على أهمية مثل هذا المشكل، كما يدل على ذلك أيضا الحرج الذي يحس به الباحثون (غاردنر Gardner وبريماك Premack إلخ) عندما يتعلق الأمر بمعرفة ما إذا كان للشامبانزي لغة أم لا ــ إذ أن كونها تتواصل فهذا أمر محقق. بل يمكننا الآن، وقد تم طرح المشكل طرحا جيدا، أن نعثر على سمات خاصة باللغات الانسانية المنطوقة، سمات تفسر الهوة التي تفصلها عن وسائل التواصل الأخرى. لكن السمات المميزة الأخرى، التي اقترحها هوكيت (Hockett) في حدود الاثنى عشر سمة، غير مقنعة.

ولا شك أيضا في أن السمات المميزة المستخرجة لوصف العلامات اللسانية منذ دوسوسير لن تصمد طويلا. **فالاستقامة الخطية** (La linéarité)، في اللغة من حيث هي ظاهرة صوتية، تتحدد بكون الوحدات المميّزة والوحدات الدالة للخطاب يتعين أن تتتابع في الزمن (أو في مساحة منتظمة في حالة المكتوب) : إذ لا يمكن أن تحضر وحدتان معا في نفس النقطة من المنطوق ؛ وهذه الخاصة أساسية فهي تحكم وتوجه الصوتيات كلها والتركيب اللغوي كله. وقد استطاع البعض فعلا إبراز وقائع تشذ عن الخطية المستقيمة **للدوال** : إضغام حرفين دالين، والدوال غير المتصلة (الخبازات الأنيقات والمكتنزات، أي مع ثلاث علامات تدل على التأنيث)، إلخ. لكن الأمر هنا لا يتعلق سوى بحالات هامشية. أما **عمومية** العلامة اللسانية بالنسبة إلى مرجعها فتشير إلى خاصية العلامة في أن تؤدي وظيفتها بنعم أو بلا، وفي أن تكون قيمة غير متصلة؛ إذ لا يمكن أن نستعمل العلامات كقيم متصلة، وكمية : فكلمة **حصان** تقصد المرجع « حمار »، كان يزن ستة أو اثنى عشر مائة كلغ، سواء كنت أنا موقنا مما أقول أو لا. وهنا أيضا تجد بعض الوقائع من عمومية العلامات، وخاصة نبرة الحديث التي يمكن تحويرها كميا، لكنها تظل واقعة هامشية في التواصل رغم أهميتها : إنها إخبار إضافي لا يحمل وحده شيئا. إن **اعتباطية** العلامات اللسانية، هذه الاعتباطية التي أسالت الكثير من المداد، تظل مفهوما مكتسبا وراسخا. لا يمكن لأي تعليق من محاورة **قراطيلوس** أن يقيم البداهة أبدا : فأن نقول arbre بالفرنسية أو tree بالانجليزية أو baum بالألمانية أو derévo بالروسية.. إلخ. فهذا لا يكفي لابراز أن الصوتيات (الفونيمات) المشكّلة للوحدة الدالة لا تربطها أية علاقة تناظر مع المدلول الذي تحمله. إن مدى تعبيرية كلمة ما ليست سوى مسألة عرضية، سواء استعملت أم لا : فكلمة Gloire (نصر) منشأة على غرار Glaire (آح).

بيد أن المفهوم الصلب الذي يتعين تنبيه الفلاسفة إليه هو بدون شك مفهوم **بنية**. فقد عرفت البنيوية بين 1960 و 1970 تعميمات، بالنسبة إلى المفهوم اللساني الذي تشمله، تعميمات هشة أو متسرعة، بحيث أن نكوص هذه الموضة الأيديولوجية والمصطلحية قد تبع بشكل مفاجيء ذروة سيادتها. وبسبب الاعتقاد فيما تشيعه الصحافة الثقافية، التي تحرق اليوم على عجل ما كانت قد عبدته بالأمس عبادة الخراف، فإن العديد من الناس يعتقد اليوم بأن البنيوية قد ماتت وتم دفنها. وذاك خطأ كلي، على الأقل بصدد البنيوية اللسانية. فمفهوم البنية

مكتسب نهائي : فهو يحكم ويسود كل التحليلات. وفعلا، إذا كان مفهوم البنية، وقد خُلص من كل تمديد أدبي أو ميتافيزيقي، إذا كان يعني فقط وجود عناصر، أو كيانات، أو وحدات تربطها فيما بينها علاقات، فإن أي علم لساني سيقوم على استخراج الوحدات الفعلية والواقعية التي يقوم عليها أداء لغة ما لوظيفتها ــ في المستوى الصوتي أو في المستوى المعجمي ــ والعلاقات التي تقيمها فيما بينها لتضمن أداء الجملة لوظيفتها (مستوى البنيات التركيبية). لن نلح إلحاحا كبيرا على أن كل النظريات اللسانية الحالية، بما فيها نظرية شومسكي، هي من الناحية الابستمولوجية، بنيويات، حتى ولو كانت هذه البنيويات (أو النزعات البنيوية) مختلفة فيما يخص وصف وتفسير البنيات اللسانية التي تحللها (والتي هي عمليا هي هي). وكون النظريات اللسانية نظريات تنتمي إلى البنيوية هو ما يجعلها كلها تستعمل مفاهيم السلسلة التراصفية (Syntagmatique) (أي دراسة العلاقات القائمة بين الوحدات فيما بينها ضمن السلسلة الكلامية)، والسلسلة الاستبدالية (Paradigmatique) (أي دراسة المجموعات أو المجموعات الفرعية المكونة من الوحدات التي يمكن أن تؤدي إلى نفس الوظيفة، أو كما يقال عادة، التي يمكن أن يحل أحدها محل الآخر في منطوق معين)، وهذه الاستبدالية هي التي تحدد، بالنسبة للغة معينة، فئات الوحدات، الصورية والتوزيعية والوظيفية، أي الأقسام القديمة للخطاب، منظورا إليها من جديد ومصححة من خلال طرائق أكثر صرامة ودقة من طرائق النحو القديم).

تتفاوت كل النظريات اللسانية الحالية فيما يخص المكانة التي تنسبها لمفاهيم ــ أو لمصطلحات ــ الوظيفة والحسم، لكنها كلها تستعملهما. فكل النظريات اللسانية مثلا تتفق حول الوظيفة التمييزية للصوتيات؛ وكلها تتحدث عن وظائف، خلال وصفها للفئات أو الأصناف المتعلقة بالتركيب، لأنها كلها توافق على فكرة أن البنيات اللسانية وسيلة غايتها هي تحقيق التواصل اللغوي. وكلها أيضا تستعمل المفهوم المركزي : مفهوم الحسم (Pertinence) أو المميز، حتى وإن لم تستخدم هذا اللفظ (الانجليزية والألمانية تستعملان، الأولى relevancy والثانية relevanz)، وذلك لحصر ما يشكل، ضمن الكلام كمعطى خام، وعلى أساس معايير صارمة ودقيقة، البنيات المجردة للغة : فمثلا تواتر (= حدة) حرف ا الذي يتغير في الفرنسية تبعا لموقعه في الكلمة أو في المنطوق أو حسب المتكلمين (طفل، إنسان أو امرأة) تواتر غير حاسم (أي غير مميِّز) ما دام حرف ا غير متميز عن حرف a الصادر عن نفس المتكلم.

إن هذه النواة الصلبة للمكتسبات اللسانية للقرن العشرين لا تُخفى عن أي لساني أنه ما يزال من المطروح دراسة مشاكل لم تجد حلها إلى الآن.

وبذلك نلامس بدون شك جملة المشاكل المختفية خلف لفظ تعبير (Expression). كان هذا اللفظ، في البداية، يدل على كل ما يعدل أو بالأحرى كل ما ينضاف إلى المدلول الخالص : الحدة، الكيفية، الالحاح، التفخيم. إلخ. وكما سنشير إلى ذلك، فإن عناصر الارسالية هاته تحمل معلومات وأخبارا إضافية تضيف إلى الارسالية نفسها، إما معلومات حول موقف المتكلم من محتوى هذه الارسالية (الشك، التضايق، التهكم.. إلخ)، أو معلومات حول موقف المتكلم من المستمع (العدوانية المتضمنة، الحشمة.. إلخ). وهناك عناصر أخرى من نفس الطبيعة قد تم بالتدريج أخذها بالحسبان : حركات المتكلم وتصرفاته، ومواقفه الجسمية الكلية (المواجهة ــ التفاعل). تجمل هذه الأبحاث تحت

اسم عام هو « ما يتصل باللغة » أو تحت اسم مبحث الحركات أو المواقف.

هناك ميدان صغير، لكنه مهم جدا ومتسع جدا من حيث بعده الثقافي، وهو علم الأسلوب (أو الأسلوبيات La stylistique) ويقصد به مجموع الوسائل الخاصة التي تخلق ما نسميه بالاستعمال الأدبي أو الشعري أو الجمالي للغة، وذلك من خلال الطريقة التي تمتلكها هذه الوسائل في التعبير عن موقف المتكلم إزاء إرساليته وفي قدرة هذه الارسالية على إحداث بعض التأثيرات على المتلقي. ورغم الفورة الحالية فإننا بدون شك ما نزال، في هذا الميدان، في مرحلة من الفقر فيما يخص الحقائق الموضوعية.

ويمكن أن نقول نفس الشيء بالنسبة لعلم الدلالة (Sémantique) سواء تعلق الأمر بالبحث في البنيات التي تنظم مناطق واسعة من المدلولات المشتركة بين كل المتحدثين بنفس اللغة (وهو ما ندعوه بالمجالات الدلالية)، أو في ميدان الأبحاث المتعلقة ببنية كل مدلول إلى وحدات صغرى نهائية. إننا لا يمكن أن ندعي بيقين بأن الوَحدة « طماطم » وحدة منبنية بالنسبة لكل الفرنسيين البالغين في وحدات مثل : نباتي + ربيعي (+ باذنجاني ؟) + فاكهة (أو + خضر)، إلخ إذ أن السيمانتيقا (علم الدلالة) هي الانتقال الأبسط والأولي بين اللغة والعالم، أو حتى بين اللغة والفكر. هنا أيضا ورغم مرور أكثر من ألفي سنة على الفلسفة، فإن الحكمة هي اعتبار أننا لسنا سوى في مراحل التعثر الأولى؛ وربما يمكن أن نقول أيضا أن كل كتاباتنا حول المعنى، أو حول المجاز مثلا، تظل أقرب إلى الانشاءات الأدبية منها إلى بناءات قائمة على جملة من البديهيات القابلة للتصديق.

لكن لائحة المشاكل المطروحة لا تتوقف عند هذا الحد. فعلم الترجمة ــ كنقل خاص للمعنى، أو للعلاقات بين اللغة والفكر ــ علم فتي. وعلى ضوء تجارب الخمسة عشر سنة الماضية على الشمبانزي والغوريلا أصبح من اللازم مراجعة كل معارفنا حول التواصل الحيواني مراجعة جذرية. وبنفس المناسبة، فإن كل الأعمال المتعلقة « بالأطفال المتوحشين » تتطلب على هذا الأساس مراجعة جدية. هذا دون أن نتحدث عن المشاكل المتعلقة بإنطاق الصم ــ البكم، ولا عن علم علاج أمراض اللغة، الذي هو غني من الناحية السريرية، لكنه ظل لسانيا متعثرا هو أيضا.

ونفس الشيء بالنسبة لمعتقد عتيق لدى اللسانيين وهو أن اللغة كانت قوة اجتماعية مستقلة، لم يكن الناس يمتلكون القدرة على التدخل فيها : فالتخطيط اللساني موجود اليوم ويدل على أن الانسان يمكنه في بعض المجتمعات اليوم أن يتحكم في تطور اللغة وأن يوجهه. فدراسة التغيرات اللغوية (اللسانيات التطورية) وهو ميدان ثري بالانتاجات إلى حدود 1930 ــ 1940، ولو أنه عرف إهمالا كبيرا لحساب ازدهار الدراسة المتآنية، ما يزال يتضمن مجالات واسعة يتعين استبارها، في حين أن دراسة اللهجات تواصل طريقها، مزودة كل يوم بأدق الأسلحة (الأطالس) فعلم اللسانيات العصبية واللسانيات النفسية واللسانيات الاجتماعية (وخاصة هاته الأخيرة) كل تلك علوم تتجه يوما عن يوم نحو أن تصبح علوما منتجة. إن ميدان استبار اللغة، رغم التقدم الهائل الذي أحرزه في النصف الأخير من هذا القرن (والذي وُضع في الكثير من الأحيان موضع شك وطُعن قبل أن يعطي كل ما يمكن أن يعطى) يظل ميدانا واسعا.

والخلاصة، التي يبدو وبدون شك أنها ما تزال صالحة اليوم، هي التي تفتتح التأمل السوسيري (نسبة إلى دوسوسير) : « إن اللغة إذا ما نظر إليها في كل جوانبها، كائن متعدد الألوان ومختلط العناصر : فهي على مفرق الطرق بين عدة ميادين، الفيزيائي والفسيولوجي والنفسي، وهي تنتمي إلى المجال الفردي وإلى المجال الاجتماعي؛ وهي لا تقبل أن تصنف ضمن أية مقولة من الوقائع الانسانية، لأننا لا نعرف كيف نستخرج وحدتها ». لقد تعلمنا كيف نتخذ طريقا في هذا الخليط الذي حدده دوسوسير تحديدا جيدا، وهو الذي يمثل فلسفة اللغة في عصره. فكل المشاكل التي طرحها، والتي كشفنا عنها واكتشفناها بعده، مشاكل مشروعة شريطة أن ندرك جيدا ونحدد موقع كل مشكل ضمن المجموع، وأن نفهم أن هناك سلسلة تراتبية من المشاكل، وعلى الخصوص أن ميدانا جد محدود من التواصل اللساني الشامل لا يحل كل المشاكل الأخرى. إن البحث اللساني يتطلب اليوم أكثر من أي وقت مضى صحة ابستمولوجية قوية. وهنا يمكن أن نقول بدون محاباة أن اللسانيات في حاجة إلى فلسفة، وذلك بنفس الصرامة التي ذكّرنا بها بأن فلسفة اللغة في حاجة اليوم إلى تكوين لساني متين.